وأطلق في الهواء القذيفة التي هزت الحي.. فما كان من الأخ فياض الا أن سحب مسدسه الكولت وأطلق هو الآخر مشط رصاصه في الهواء ايضاً.. وتمزق الهدوء وكان ما كان... وكالعادة.. فقد استمرت المعركة، إلى أن قامت اللجنة الأمنية وأجرت الاتصالات اللازمة وأعلنت وقف القتال فوراً ووجوب التقيد به، بعدما تبين لها أنه كان نتيجة حادث فردي. و.. «لا تواخذونا».

بيروت

هاتف منتصف الليل قهرني: أدركتُ أنّ ثمة خبراً خطيراً سأسمعه.. وهل هناك أخطر من أن يسمع المرءُ خبرَ وفاة أمه؟

لم أنم. ظللتُ أستحضر وجهها الأليف وأنا أعلك حزني. فمنذ سنوات لم أرها، وكان صوتها وحده على الهاتف عزاء اللقاء: «متى أراك يا بني؟» فأردد: «قريباً يا أمي قريباً». ثم أرجوها أن ترضى عني. فتقول عبارتها التي لم تتحقق أبداً: «الله يجعل التراب في يدك ذهباً». فأضاحكها: «ها أنا ممسك بحفنة من التراب. فأسمعيني أدعيتك يا أمي..» وتردّ عليّ بإيمان خاشع وعميق: «سوف يعطيك الله من عنده ما لم يخطر لك في بال».

باكراً، أسرعتُ إلى أول تاكسي أرجوه نقلي إلى شتورة، حيث سينتظرونني هناك فأنتقل معهم إلى دمشق. وقد فعلنا ذلك اختصاراً للوقت.

كان الشاب الذي نقلني في سيارته في مقتبل العمر. أراد أن يتباسط معي في الحديث. تحدّث طويلاً دون أن أفقه شيئاً مما قاله؛ فأنا ذاهب لوداع أمي. أتذكر، لحظة بلحظة، كل ما يتعلّق بها، بوجهها المدوّر المليء صحةً وبصوتها الناعم الأثير إلى قلبي.

لا شكّ أنّ السائق الشابّ أدرك أخيراً أنني منصرف عنه تماما، فسألني: «أستاذ.. ما بك؟ كأنك لا تسمعني».. اعتذرتُ منه، ثم أنبأته بوفاة أمي. صمت لحظة. وخفّف من سرعة السيارة. انتبهتُ أنه يسترق النظر إليّ. ثم قال: «ما أصعب فراق الأم. أنه أشدّ مرارةً من أيّ فراق آخر.. أنا، أيضاً، يا أخي، فقدتُ أمي. كانت واحدة من شهداء مجزرة قانا في الجنوب.. ليس هي فقط، بل أخواتي الثلاث، وأخي الصغير..».

مَنْ يعزّي مَن الآن؟ ارتبكتُ حقاً. فمأساة الرجل أكبر من مأساتي.. وردّدنا معاً: «إنّا لله وإنّا اليه راجعون».. بعد ذلك، ساد صمت، إلاّ هدير السيارة وهي تصعد «ظهر البيدر» متّجهةً نحو سهل البقاع.

وصلنا إلى المكان الذي اتفقنا على اللقاء به. أخرجتُ مبلغاً من المال وقدمّته إلى سائق السيارة. فرفض في البداية أخذه، وكرّر تعزيتي. وبعد إلحاح تناول المبلغ خجلاً وتركني.

جاءت سيارةُ صهري ومعه زوجُ ابنته. فركبتُ إلى جانب غسان فيما الصهر جلس في الخلف. تبادلنا كلمات مبتسرة. سألتُ عن سبب الوفاة: «إنها جلطة في القلب لم تمهلها ثواني».

كان ذلك اليوم يوم جمعة.. وسيشيّع جثمانها بعد الصلاة مباشرةً. وعندما قلت إنني أريد أن أراها قبل الدفن، أسرع غسّان بسيارته مسابقاً الريح.. ولم تمض ساعة من الوقت حتى كنّا في الحي الذي نسكن فيه. استقبلني والدي مفجوعاً وارتمى على صدري باكياً، ثم جلستُ إلى جانبه. كان صمتُ الموت يخيّم على الجميع. همستُ في أذن صهري: «أريد أن أراها». قال: «طبعاً.. انتظرْ قليلاً». كان أبي يجلس في صدر الدار يضرب كفاً بكف، فيما الجميع من الاهل يلتفّون حوله. كنتُ أرتجف، ظننت أنه البرد، فشتاء دمشق الصحراوي قاس دائماً. رحت أتأمل الوجوه التي حولي. لأول مرة أجد هذا الجمع من الأسرة دفعةً واحدة وفي مكان واحد. كانت العيون تنظر نحو أبي مشفقةً أكثر من نظراتها نحوي. ولِمَ لا، فهو الخاسر الأكبر: فبعد أن تزوّج أبناؤه وبناته جميعاً، ظلت أمي وحدها إلى جانبه ترعاه بصمت وكبرياء، وتردّ عنه كل أذى، وتحرص على صحته مع دعائها الدائم: «الله يجعل يومي قبل يومك.. لأنني سأموت بعزّ». أترى الله قد نفّذ رغبتها؟!

بعد لحظات، غمزني أحد أفراد العائلة. خرجت. ثم أشار إليّ أن أصعد إلى الطبقة الثانية من المنزل. صعدتُ الدرج. فوجدتُ اخواتي السبع مصفوفاتٍ بسواد ملابسهنّ يبكين بصمت، بينما كانت أصغرُهُنّ تردد بصوت مسموع: «لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله».

دخلتُ الحمّام حيث كانت أمي مسجّاة. وقد لُفّتْ بكفنها ولم يبق ظاهراً إلا وجهها.. كأنها نائمة. إلا أن وجهها بدا لي مشدوداً كأنّ لحظة الموت رعبتها. اقتربتُ أكثر، ورحتُ أمسّد الوجه البارد بأناملي بطيئاً بطيئاً. استرخى وجهها.. وخيّل إليّ أنها سترفع رأسها نحوي.. قبّلتها من جبينها مراراً.. ثم

---

* - حياة بنت أحمد جليلاتي المعتوق، والدة الكاتب التي رحلت مؤخراً.

عُدتُ أمسح وجهها براحتي، فانفتحتْ عيناها تلقائياً. نظرتُ ملياً في تينك العينين وكأنهما تنظران إليّ تماماً، تلك النظرةَ المعاتبةَ التي ألفتها كلما التقتني في الماضي وهي تردّد: «متى تعود إلى البلد يا ابني؟ أريد أن أشبع منك». إنها النظرة ذاتها.. ذاتها. فأحسست بالذنب. اقتربتُ من أُذنها وهمست: «سامحيني يا أمي.. سامحيني أرجوكِ».

أغلقتُ عينيْها بيدي.. ولم أقوَ على مفارقتها. رحتُ أقبلها من رأسها إلى قدميها وأنا أجهش وأكرّر: «سامحيني سامحيني يا أمي».

انتزعتني نسوةٌ منها انتزاعاً، فخرجتُ. نظرت نحو أخواتي ورجوتهنّ أن لا يصرخن، وأن يودّعنها وداعاً صامتاً. فلبّيْن رغبتي.

حُملتْ أمي إلى نعشها. ثم صُلّي عليها بعد صلاة الجمعة مباشرةً. وبعد أن خرجنا من المسجد تمسّك بيدي أبي المنهار. انتبهتُ إلى شبان الحي وقد رفعوا النعش على أكفّهم كأنها جنازة شهيد، وراحوا يردّدون بصوت واحد : «لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله». أما المشيّعون فكانوا بالمئات. قلتُ في نفسي: من أين أتى كل هؤلاء؟

وما إن اقتربنا من مفترق الحيّ حتى انحرف النعش بين الأيدي نحو البيت، كأنّ أمي لا تريد أن تفارق المكان الذي عاشت فيه عمرَها المديد. لكنّ الشبان أبوا إلا أن يتّجهوا بها إلى المقبرة.

وقف الناسُ جانباً، فتركتُ يد أبي واتجهتُ نحو القبر. سأل حفّارُ القبور عن ابن المتوفّاة.. أشرتُ إليه: «أنا». قال: «تعال يا بني».. ثم أشار إليّ أن أمسك برأسها فيما الأحفاد أمسكوا ببقية الجثة. اقتربنا من الحفّار الذي أصبح داخل القبر وأرخينا له الجثةَ المشدودةَ إلى كفنها الأبيض.. فرجوته أن يمسّد التراب تحت رأسها ويزيل بعضَ الحجارة الخشنة.. فعل ما طلبتُ، ثم سجّاها وحلّ عنها وثاقَها، فيما كان شيخٌ يرتّل القرآن، ورجالٌ يردّدون: «الله اكبر.. الله أكبر». إلا ان صيحة أبي الفاجعة أبكت الجميع: «وين تركتيني يا حياة؟.. وين يا قرة عيني؟».

ابتعد الأحفادُ بأبي، فيما كان الترابُ ينهال رويداً رويداً فوق القبر: من التراب وإلى التراب تعودون.

*

مرت أيام التعازي الثلاثة بطيئةً، ثقيلةً على الصدر والفؤاد. وفي كل مرة كان أبي يروي مفجوعاً ذكرياته الأخيرة عنها. يوم رحيلها سألَتْهُ: «لماذا تترك شعر ذقنك مسترسلاً.. هل انت حزين عليّ؟. لم أمت بعد. قم.. الآن. أرجوك.. احلقْ ذقنك». وعندما حقّق لها رغبتها، اقتربتْ منه وقبلته من خده.. ثم سقطتْ.

كان كلما روى هذا المشهد يبكي بحرقة. رواه في ثلاثة أيام، عشرات المرات. وروى فيما روى أنّ بائعاً للسجاد دخل الحي يعرض بضاعته.. أعجبتها سجّادة فقالت لأبي: «اشترها لنا..» واعترض: «عندنا سجّاد.. ولسنا بحاجة إلى سجاد..» قالت له: «هذه سجادة جميلة.. اشترها لي، أرجوك».. فاشتراها.. ولم تدُسْ عليها. روايات تفجع القلب.. كلما ضرب كفّاً بكفّ أحسّ بكفٍ ثالثة بين راحتيه. قبل رحيلها بيوم واحد دفعتْ لابنتها ثمنَ قلمِ حمرة.. مع انها لم تكن تخضب وجهها، أو تجمّله. كانت تتصرف كأنها تعيش أبداً، مع أنّ حياتها كانت تعباً بتعب. أنجبتْ دزينة أولاد، وحجّتْ إلى بيت الله، وتواعدت مع أبي أن تحجّ مرة ثانية.

ما أرهب الموت عندما يقتل كلّ هذه الأحلام.

*

مر أسبوع بعد ذلك الحزن يجثم على حيّ بأكمله. صمت يلفّ البيوت. فلا نسمع صوت مذياع أو تلفزيون. وكأن الفقيدة أمّ الجميع، فقد أُلقي على نعشها الرزّ والزهر. وكانت كلُّ نساء الحي يودّعنها من الشبابيك ملوحاتٍ بأيديهن: «الله معك يا حياة».

*

كان عليّ بعد ذلك أن أسافر. فأعود إلى مكان عملي في بيروت. فطلبتُ أن أزور غرفتها التي لم يفتح بابها منذ رحيلها. صعدتُ إلى الطبقة الثالثة في البيت، واقتربتُ من الغرفة، كانت صامتة، ساكنةً سكونَ الموت، فارتجف قلبي. وبكيت على بابها أكثر من أيّ بكاءٍ آخر داهمني خلال تلك الأيام الصعبة.

أخيراً، فتحتُ الباب، ففاحتْ من خلاله رائحةُ عطرها الأثير. اقتربتُ.. ويا لهول ما رأيت. حسبتُ أنني واهم، لكنني فتحتُ عينيّ محملقاً. إنها هي. أمي، بكل جمالها وهي في الثلاثين، جالسةً أمام مرآتها تمشّط شعرها الطويل.. ارتجفتُ. أغلقتُ عينيّ ثم فتحتهما.. يا إلهي.. إنها هي. بقامتها المشدودة الجميلة. بجمالها الذي كانت به، في صباها، تسحر العيون. بشبابها الذي لم أنسه قط. تأملتها وأنا ارتجف. كانت مديرةً ظهرَها نحوي. لكنني انتبهتُ أنّ ظلها ليس في المرآة. كدتُ أنهار.. استندتُ إلى الباب. فأحدث ذلك صوتاً. التفتتْ نحوي ضاحكةً وتأملتني طويلاً.. ثم قالت لي هامسة:

ـ لا تصدّقهم.. لقد كذبوا عليك.. أنا لم أمت يا بنيّ.

بيروت (دمشق)